خواطر على باب الريان

عبر ومواعظ من مدرسة رمضان

وصال تقة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هـل جربت أن تخرج مـن ضيق خـزف نفسك المجبولة على الكسل والضعف والـركـون للدعة، إلى رحـابـة المحجة البيضاء وامتداد الخط الواحد المستقيم، وعبق الريان؟

هـل جـربـت أن تـشرع مـراكـبـك، وأن تهيئ حـقـائـبـك، وأن تسافر في أنداح السكينة والرحمة ومنة المنان؟

أن تـحـلـق بـثـلاثـين جـنـاحًـا إلى عـــوالم الـنـور وكـواكـب الـغـفـران وقناديل الذكر والقرآن؟

أن يـــؤذّن في روحـــك أن أقـبـلي، فـهـذا شهر الـصـيـام والـعـفـو والـجـود قد أقبل، فماذا أنت صانع فيه؟

فتحلق للأعالي تطّوّف بمحاريب السجود ومقامات التسابيح وبيت الإمـسـاك العتيق.. تلبي نـداء الـقـرآن، وتـهـرول بـين الكرم والـجـود والسماحة وطـاقـات الـنـور الكامنة في الـوجـدان.. ترجُم قيدها، وتغتسل بمـاء التوبة كي تنبت كما تنبت الحبة في حميل السيل، وترحل عن بِـرَك المعصية والـدون والهوان التي تغرقها في أوحالها، وتثقل خطوها، وتهوي بها في سُحْقِها..

هذا رمضان قد أقبل..

فقم وامسح عنك الوسن واغتسل بدمعك من الغفلة والتسويف والخطيئة والكسل..

واعلم أن حبك الخير الذي جبلت عليه، إنما هو جذوة تذكرك بأن في أعماقك طاقات نور آسنة قد غيرها طول المكث، وروح تواقة للعلا يكبحها التسويف تارة، والعجز والكسل أخرى، والغفلة بين هذا وذاك تسقيها حممها.. وتحتاج لنفحات ربها كي يفيق قلبها المخمور..

قم وانفض عنك الغبار، وأسعف روحك التواقة للسمو..

كن «فردوسيًّا» «كوثريًّا»«ريانيًّا»، واترك ملاهي الحياة وملاذها للمغضوب عليهم وللضالين..

فقد جاءك رمضان.. جاءك إكسير الحياة..

توطئة:

ليست هذه الرسالة التي بين يديك جولة في كتب فقه الصيام، فذاك يبحث عنه في مظانه.. ولا تفصيلًا للأحكام، فللصنعة أهلها وللفن أصحابه الموكل بهم..

إنما هي شهاب قبس، وموعظة ودرس من مدرسة شهر الصيام والقرآن والغفران.. نطّوف حول المعاني، ونغوص في خبايا الروح المستقبلة لكرم المنان.. نحثها تارة على الإقبال، وتارة على التذكر واليقظة، وتارة على ملاحقة ركب من سبقوا، وتارة للحفاظ على المكتسبات وأخرى للصدق مع النفس والشفافية معها والقرب الدائم منها..

ومضات خاطفة، والتماعات سريعة، وبرقات لن نطيل فيها التفصيل، لكن نطيل معها المكث والتدبر والوقوف على المطلوب..

رمضان مدرسة.. فاحجز مقعدك على باب الريان..

أيها السادر في الغفلة والشرود، الطامع في خزائن جود مولاه، الماثل على أعتاب الدلجة، المشرع مراكبه لمرافئ الوصول..

(١)

سلعة الله غالية، وإليها قد شدت الرحال..

في شهر الهمة والتشمير..

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) (ق).

تلك البضاعة الغالية ثمنها مثلها عزيز نفيس غال، وريعها والمزيد لكل من دأبه الرجوع إلى الله، وامتثال أمره ونهيه، كثير الحفظ لوصايا الله وحدوده، المحافظ على الطاعة.. فإذا صدرت منه فلتة أعقبها بالتوبة. وجماع ذلك في خشية الرحمن بالغيب، والمجيء بقلب ديدنه الإخلاص والمسارعة إلى طاعة الله ومحبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه.

(من خافَ أدلَجَ، ومن أدلَجَ بلغَ المنزلَ، ألا إنَّ سلعةَ اللَّهِ غاليةٌ، ألا إنَّ سلعةَ اللَّهِ الجنَّةُ) صحيح الترمذي (٢٤٥٠).

(٢)

في رمضان..كل الزاد رجاء وطمع منك
في الباع والذراع والهرولة

الجزاء من جنس العمل وليس مقابلًا للعمل، فمهما حاولنا واجتهدنا فلابد من التقصير.. ومن ذا الذي عبد الله حق عبادته؟ إنما هو تفضل من البَرِّ الشكور سبحانه، الذي يعطي على القليل الكثير، ويكرم عباده بالأجر العظيم، ويغفر الزلة ويقيل العثرة.

(لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك).

أتيتك يا ربي حبوًا وظننتني أحث الخطى، وكل الطمع منك في الباع والذراع والهرولة. وأجبت داعي الإيمان على ما بي من عيب وكسر وغفلة، فاغفر يا غفور التقصير واجبر كسر القلب الضعيف..

أتيتك أسألك من الخير الذي بين يديك، وأتعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه، طمعًا في النجاة وولايتك، وشهود عظمة جلالك وصفات كمالك، وكل الزاد رجاء في رحمتك، وطمع في ملجئك.. وفي قرب القلب وحضوره بين

يـديـك، فـأخـرجـنـي يـا رب مـن ضـيـق نـفـسي إلى رحـابـة كرمك ورحمتك، ومن شح نفسي المجبولة على التقتير، إلى رحابة جودك وعطائك..

ومُـنَّ- يا منان- على قلبي بسجدة تقربه منك وتتقرب بها منه، لا يرفع منها إلا وقـد شهد قربك ومعيتك ووجهك الكريم يوم المزيد..

(٣)

رمضان التقلب في شعب الإيمان قلبًا وقالبًا، روحًا وجسدًا

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) البقرة (٢٠٨).

١- اعـمـلـوا بجميع الأعـمال ووجـوه الـبر: رمـضـان فـرصـتـنـا لنسدر بـالـروح في ريـاض المحبـة والـخـضـوع والـطـاعـة، ولـنـحـيـي السنن المـهـجـورة ولـنـنـوع الـعـبـادات ولـنـجـرب تـلـك الـتـي لا نمـنـح أنفسنا فرصة النهل منها باقي أيام السنة..

٢- خـذوا بجميع عـرى الإسـلام وشرائـعـه وشـعـب الإيمـان، واعـمـلـوا بجميع أوامره، واتركوا جميع زواجره ما استطعتم من ذلك.

٣- أقيموا شعائر الإسلام واشتغلوا بها عما عداها.

٤- ادخـلـوا بـكـل جـوارحـكـم في شرائـع الـديـن، قـلـبًـا وقـالـبًـا، روحًـا وجسدًا.

رمضان فرصتنا لتحقيق الدخول في السلم كافة،

اللهم مددك وعونك وتوفيقك وقبولك..

(٤)

وبين العدل والفضل والحكمة
تدور أفعاله وتشريعاته سبحانه

في استقبال رمضان..

تعرف على ربك.. في أسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه.. هي مناسبة لمعرفة مدلولها وآثار الإيمان بها والدعاء بها..

وحيث أن أفعاله سبحانه تدور بين العدل والفضل والحكمة، وجب العلم بها في استقبال هذا الشهر الكريم_ شهر الصيام والقيام والقرآن_ لنعلم أنه سبحانه لا يشرع ما يشرعه من أحكام- صلاة كانت أو صيامًا أو قيامًا أو غيرها مما شرع سبحانه- إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته، وفضله وعدله..

وحيث أن الشهر شهر قراءة للقرآن، فإن في تدبر معاني أسماء الله- عز وجل- وصفاته أكبر عون على تدبر كتاب الله تعالى..

(٥)

في رمضان،
لتكن تجارتك مع ذنبك..

ذاك الذي جاهرت به، وذاك الذي تلبس عليك مع الطاعة، وذلك الذي خفي عن أعين الناس..

دمعة وزفرة وسجدة بين يدي القوي سبحانه معترفًا بضعفك وبغلبة شهوة نفسك المركبة جبلة فيك، تسأله أن يرحم فيك ضعف الإنسان، وأن يغيثك من الأمارة بالسوء، وألا يكلك إلى نفسك طرفة عين..

والأوبة منة، والتوبة فضل، والدمع والاعتراف أول خطو على طريق الهداية..

ومضة:

فلسفة الذنب

ليست هذه دعوة إلى اقتراف الذنوب، ولا إلى تنحل الملائكية والقداسة والتنزيه، إنما هي دعوة إلى الإصاحة إلى صوت الفطرة داخلنا.. إلى إعمال الفكر في إنسانيتنا بعد الوقوع في الذنب.. تعين الشارد على الأوبة والمتعالي على الرضوخ والإذعان.

فربَّ ذنبٍ يقربك من مولاك، يجعل قلبك يسجد بين يدي القوي سبحانه معترفًا بضعفك وبغلبة شهوة نفسك المركبة جبلة فيك، تسأله أن يرحم فيك ضعف الإنسان، وأن يغيثك من الأمارة بالسوء، وألا يكلك إلى نفسك طرفة عين. ويجعل روحك تسجد لغافر الذنب الرحيم التواب، العليم بضعف عباده وبتلبس الشهوة بهم وضعفهم أمامها، القابل لتوبتهم ولأوبتهم واستغفارهم..

وذنب يعرفك نفسك ويجعلك تكيل لها الاتهامات.. يعلمك أنك مهما بلغت من مراتب العلم والتقوى، إنسان و إن أردت محاكاة الملائكية والسير في دروب النور، فطبعك الآدمي غلاب ..يعلمك ألا تزكي نفسك وألا تتعالى على الخلق بعلمك أو

بأخلاقك، ويذكرك أنك مهما اجتهدت فأنت مُعرَّض للابتلاء والتمحيص والفتنة، فيجعلك لا تظن بنفسك خيًرا وتبتعد عن العجب والغرور.. يعلمك السير في دروب المجاهدة، وتكلف الإخلاص حتى يصير ديدنك، والتصبر إلى حين البلوغ للصبر، والتخوف حتى يصبح الخوف فيك جبلة، والتورع حتى يصبح الورع سجيتك، والتعفف حتى يصبح العفاف نهجك..

ونفسك المحبة للحق ابتداء، المتجاذفة بين الطاعة والعصيان، يمدها النور تارة والظلام أخرى، هي نفس إنسان قبل كل شيء، نبتتها طيبة لكنها اجتيلت، وأوشك الهوى أن يستعبدها، تطلع إليها وانفض عنها العتمة، جاهدها.. اجلدها.. علمها أن تسير على درب الوصول خاضعة خانعة منقادة..

وتبقى فلسفتك في التعامل مع الذنب بعد وقوعك فيه الفيصل بينك وبين من حادوا وشردوا وقطعوا على التوبة سبل الإياب..

(٦)

في استقبال رمضان.. التوبة..

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) النساء ١٧.

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الأنعام ٥٤

ومن كمال رحمته تعالى أن جعل توبته لكل من عصى ثم تاب وأصلح، فلم يشترط ألا يكون عالمًا بحرمة الفعل، بل على العكس من ذلك، يعلم، لكن شقوته وانقياده للهوى وللشيطان جعلته يقع في الذنب. فكان من تمام رحمة الله به أن فتح له باب التوبة وتقبل توبته وغفر له، فكان العبد بذلك متقلبًا بين الرحمة في الأولى والآخرة، وصاحبته الرحمة: قبل الوقوع في الذنب بما كتب الله على نفسه من وعد بالمغفرة لمن تاب، وحين الذنب: بتبصرته بأنه أذنب فلم يلبس عليه، وحين تاب عليه كي يتوب فهداه لمعرفة موطن الزلل وكيفية الإصلاح، وحينما قبل توبته: فجعله يتقلب في مغفرته التي هي أثر من آثار رحمته، لذلك جاء تذييل الآية الثانية باقتران اسمه الغفور سبحانه باسمه الرحيم.

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله:

« ... وليس المراد بالجهالة ما يطلق عليه اسم الجهل، وهو انتفاء العلم بما فعله، لأن ذلك لا يسمى جهالة. وإنما هو من معاني لفظ الجهل، ولو عمل أحد معصية وهو غير عالم بأنها معصية لم يكن آثمًا ولا يجب عليه إلا أن يتعلم ذلك ويتجنب.»

ويقول أيضًا:

«الجهالة تطلق على انتفاء العلم بشيء ما. وتطلق على ما يقابل الحلم، والمناسب هنا هو المعنى الثاني، أي من عمل سوءًا عن حماقة من نفسه وسفاهة، لأن المؤمن لا يأتي السيئات إلا عن غلبة هواه رشده ونهاه. وهذا الوجه هو المناسب لتحقيق معنى الرحمة.. وأما حمل الجهالة على معنى عدم العلم بناء على أن الجاهل بالذنب غير مؤاخذ، فلا قوة لتفريع قوله ثم تاب من بعده وأصلح عليه، إلا إذا أريد ثم تفطن إلى أنه عمل سوءًا.»

(التحرير والتنوير) الطاهر بن عاشور رحمه الله

ومضة:

- أيا نفس ما لي أسقيك توبة وأوبة وماء فردوسيًّا، وتسقينني التمرد والعصيان؟

ما لي أدعوك إلى السمو والقدسية والملائكية، وتدعينني إلى البهيمية والدون والهوان؟

أقسمت عليك يا نفس ألا تجريني.. ألا تكبليني.. ألا تزيني لي الباطل فتسقطيني.. ألا تعمي عيني عن خيوط النور، فتهوي بي وتهزميني وتدحريني، وعن باب ربي تطردينني..

أقسمت عليك يا نفس..

أقسمت عليك يا نفس..

(٧)

التوبة وسيلة والإنابة غاية

وفرق بينهما[١] ، فرق ما بين من شرع المراكب يبغي الوصول ويبحث عن المرافئ، وبين من استقبلته المرافئ استقبال الأبطال الكرام، فسارَع للاستقرار ولزم الطمأنينة, واتخذ على نفسه عهد السكون والثبوت فيما سيستقبله من أيام.

فهل يكفينا- ونحن في شهر تصفيد الشياطين، وتهيئ أسباب العبودية، الاعتذار باللسان؟

هل يغنينا المقال والوعد بالتغيير، عن الوفاء والمسارعة إلى إصلاح الحال؟

هل يكفينا أن تكون إنابتنا إنابة يلتقي فيها الخواص بالعوام، والصالحون المصلحون بالفجار، فيكون كل معناها عندنا التضرع حال الشدة، والجأر بالدعاء من أجل تفريج الكرب؟

---

(١) قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية:
الفرق بين التوبة والإنابة: قيل: التوبة هي الندم على فعل ما سبق.
والإنابة: ترك المعاصي في المستقبل.

أم هي فرصتنا للترقي في سلم العبودية، للوصول لمحبة كمحبة المشمرين المدلجين الذين لا يرضون إلا خضوع رقابهم لألوهيته تعالى، والإقبال عليه سبحانه والإعراض عمن سواه، العارفين بحرمته، الموالين له، المتواضعين لجلاله، التاركين لهوى أنفسهم؟

من تسجد قلوبهم المخلصة لمالكها سجدة لا يرفعون منها إلا وهم على باب الجنان..

رمضان فرصتنا للترقي في مراتب العبودية..

التوبة وسيلة والإنابة غاية..

ومضة:

قد تلظى القلب بجمار المعصية، وهفت الروح للاطمئنان.. هذا رمضان قد شرع لك المراكب وهيأ لك المرافئ، فاحمل روحك على مراكب التوبة إلى مرافئ الإنابة؛ مرافئ الأمان.

(٨)

في رمضان الزم التذكر واليقظة

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) الأعراف (٢٠١)

نزغ الشيطان سنة ماضية لا يسلم منها ولي ولا مقرب، والنجاة والسلامة من الانسياق معه إنما تكون بالتذكر- حين طوافه بنا محاولاً الاستقرار بقلوبنا وتحريض الجوارح- بأنه لا يألو جهدًا في الإطاحة بنا في شباكه، وبتذكر ما شرع الله لنا تحرزا منه، وبالتيقظ لمكره وكيده، والفزع إلى الله والهروب إليه استعاذة به سبحانه من كيده وشركه..

والتذكر يحتاج يقظة وبصيرة وعزمًا وقوة، وقبل ذلك صدقًا مع النفس وقربًا منها واطلاعًا مستمرًا على خفاياها، وشفافية في التعامل مع تقلباتها..

عزموا في ثبات، وتذكروا أوامر الله ووصاياه والدواء لهذا الداء، فأنجاهم الله من خواطرهم الشيطانية فهاجرتهم، وظهر لهم الحق أبلجَ ناصعًا، فعملوا بما تذكروا، فكان جزاؤهم من جنس العمل، وولّد الثبات على الحق ثباتًا آخر على الهدى والتقوى..

(٩)

ليلك في رمضان..

قال الحافظ ابن رجب: (واعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه: جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين وُفِّي أجره بغير حساب).

ليلك.. ذاك البهيم الذي اعتاد جسدك أن يبحر في أعماق حلكته ويتجرد من عقل قد كان طول اليوم سابحًا سبحًا طويلاً بين ركام الطمع والحرمان، يركض ركض الخائفين خلف قصاصات الأحلام، ويقف طويلًا على أطلال خلفتها الخيبات.. ها قد جاءك شهر الأنوار يُسرِّجه، يملأ جنباته مسكًا فواحًا يعطره القرآن، ولؤلؤًا نداحًا تُنوِّره الأجفان..

دخن كثيف ذاك الذي يحجب قلبك عن زخات النور.. وطين لازب ذاك الذي يثقل جسدك المتهاوي على حافات المتعة والانهماك وبراثن الوجع العميق.. آسن قد صار من طول المكث في مستنقعات الحياة..

فانفض عن عينيك الوسن، وقم عانق الصفاء والنقاء وامتزج

مع السكون كي يغرد قلبك الحزين دعـوة صادقة موشاة بدمع بـرئ.. دعـوة يسجد فيها قلبك سجود الشاكرين الطامعين في خزائن رحمة وجـود رب رحيم كريم جـواد.. يغتسل فيها القلب قبل العين من أدران سـوء الظن ومـن شح المجبولة على التقتير.. وتـسرج الـروح الظمآى في ملكوت مجيب الـدعـوات، جاعل تواتر الفرج والـشـدة سنة كونية تقلبها بين الصبر والشكر وتشحذها بالرجاء واليقين وحسن الظن بالله وبما عند الله..

ومضة:

إن عافت نفسك الدنيا وتلظت بجحيم الحياة، فاعرج بها إلى أبـواب الـقـائـل سبحانه: (مـن يـدعـوني فأستجيب لـه، مـن يسألني فـأعـطـيـه، مـن يستغفرني فـأغـفـر لـه)، واسْرِ بها بقطع مـن الليل تعانق النقاء، ولا تلتفت إلا وأنـت على الحوض تغرف غرفة لا تظمأ بعدها أبدًا.. أو على باب الريان بفضل كريم منان..

(١٠)

رمضان المبادرة..
الدعاء الدعاء..

انكسر انكسار الضعيف الخاضعة رقبته لمولاه..

لا تعجز عن طرق بابه، واستكثر من إعادة القرع، وأنخ مطاياك بباب الحيي الذي يستحيي أن يرد صفرًا من يمد إليه يديه..

ولقوة الرجاء وانتظار الفرج وتأميل كشف الضر؛ حلاوة وخفة ونشاط وطمأنينة تعقب الدعاء المُلحّ الصادق، المبلل بدموع الطمع في عطايا الكريم الجواد.. وذاك الذي أضناك التعبير عنه، وأنهكك بيانه، وتمنعت عنك فصاحتك في إظهاره.. يكفيك أن العليم بالخبء والسر وأخفى، أعلم به وبحالك منك..

فماذا لو كان هذا الدعاء قد عطره طيب خلوفك وأنت صائم، أو أضاءته قناديل قلبك الساجد بين يدي الكريم الجواد الودود في الثلث الأخير من الليل وهو يتودد لعباده ليستغفروه؟لم لا نستغل كرم الكريم، وننكسر بين يديه، ونقبل على عطائه وقد فتح لنا أبوابه وهيأ لنا خزائن جوده في كل آن وحين، ولم يجعل للدعاء تاريخ صلاحية ولا وقتًا معينًا للوفود عليه؟

وتصور لو أن الدعاء كان محددًا بساعة معينة من ليل أو نهار، وأكثر من ذلك لو كان محددًا بيوم معين من الأسبوع أو من الشهر أو من مواسم الخيرات، كيف سيكون حالنا؟ نجمع الهموم والحاجات والأحزان في قلوبنا، أو لربما فرغنا شحنتها بالبوح لغيرنا، ونحن موقنون أنه لن يعدو أن يكون بوحًا وبوحًا فقط.. ثم ننتظر ساعة الدعاء المحددة.. فإذا ما غفلنا أو انشغلنا عنها، فاتتنا الفرصة فاضطررنا إلى انتظار اليوم الموالي أو الشهر أو النفحة الموعودة، بنفس الحمل القديم مع إضافة هموم جديدة: هم الأسى على إضاعة فرصة اللجوء إلى الله.. وهم الخوف من إضاعة ما يستقبل من فرص..

لك الحمد يا قريب يا ودود يا مجيب الدعوات.. لك الحمد أن جعلت أبواب الدعاء مفتوحة آناء الليل وأطراف النهار، وهديت إليها من تعلق قلبه بك وبالرجاء فيك..

لك الحمد من إله رحيم، علمت حاجة عبيدك لك وفاقتهم لقربك ومعيتك واضطرارهم لكلئك وولايتك، فكنت أقرب إليهم من حبل الوريد: قريبًا بإحاطتك، وبإجابتك وإثابتك..

فلك الحمد ولك المنة ولك الثناء الحسن..

(١١)

الجهد المشتت لا يصنع تقدمًا

في رمضان تعلو الهمة وتسمو إلى الاستكثار من المشاريع..

اجمع شمل مشروع واحد, وابذل كل جهدك في تطويره، وأعطه نفسًا عميقًا من أنفاسك، ستجد ثماره أكثر مما لو فرقت جهدك على مشاريع أخرى صغيرة..

مشروع رمضان الأكبر: مصاحبة القرآن..

- «مَثَلُ الجليس الصَّالِح و الجَليس السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْك، وَكِيرِ الْحَدَّاد، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْك إِمَّا تَشْتَرِيه، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً » متفق عليه.

- «الصديق في وقت الضيق».

- «قل لي من تصاحب أقل لك من أنت».

نعم الجليس.. ونعم الصاحب.. وكفى به مشروعًا..

ومن كان جليسه القرآن، فقد كُفي الهم والضيق، وتبرأ من الوحل، وعطر الأنفاس بالمسك وعانق ستائر النور..

فهنيئًا لمن عُرف بالقرآن أهلًا وصاحبًا..

التماعة:

وكم تألف هذه النفس ما حولها، وكم تضيع حقائق الأشياء وعمقها، وتغور المعاني في لجج التكرار والإلف والعادة.. فلا الصبح يبعث في الروح بخيوط نوره مشاهد الجمال، ولا الليل يرسل فيها مشاهد الخوف والسكينة، ولا الجبال تحرك في النفوس مشهد العظمة، ولا ألوان الفراش ولا شذى الزهور ولا شدى الطيور ولا ترنيمة الرياح وعزف الرعود يحرك الوجدان طربًا لمعاني الجمال والكمال ودقة الصنع..

نعتادها من كثرة ما نراها، ونألفها لكثرة ما نحياها، ولا محرك لتأملها وتحريك الوجدان لها إلا بتأمل عميق في الملكوت وآيات الله الكونية، وتدبر دقيق وإعمال للفكر في كتابه الحكيم..

فهل جربت أن تسمو بهمتك من قراءة الحرف واحتساب العشر حسنات عليه إلى أجر التفهم والتأمل والتدبر؟

هل جربت أن تشرع مراكبك وتهيء حقائبك وأن تسافر في أنداح السكينة والرحمة ومنة المنان؟

أن تحلق بأجنحة من نور إلى عوالم النور وكواكب الغفران وقناديل الذكر وكلام الرحمن؟

أن تصنع من كتاب الله بوصلة تحدد لك معالم السبيل، ونبراسًا يضيء لك عتمة الحياة المجبولة على الكدر، يقوّم ما حاد من الأفكار وما حنف من السلوكيات عن الطريق الواحد الممتد الطويل، ويهذب شعث الأخلاق ومارقها.. وتستنصر به على الأمارة والهوى، وتستغيث بالحياة الكامنة في آيه من موت الأرواح على مقصلة الغفلة والتسويف والعادة.. أن تجعله الدستور الذي لا يحيد عنه إلا هالك، تستشعر خطابه لك وبأنك المعني في كل أمر وفي كل نهي.. تستجيب لنداء «يا أيها الذين آمنوا» وترعوي من الزجر والنهي والوعيد، وتشرق نفسك مع كل وعد جميل بالغد الجميل في رحاب الجنان.. تمني النفس وتأمل في من وعد وصدق عباده وعده.. يقشعر منك الجلد لذكره سبحانه، وتذرف المآقي لآلئها، ثم ما تلبث أن تلين وتتنفس السكينة والطمأنينة.. تتجول في أفانين اليقين ومروج الثقة وبساتين الرجاء.. تمرض فتهرع إلى آيه وإلى قصة أيوب تتلمس من بين الحروف الرجاء والطمأنينة والثقة في قدرة الطبيب الشافي، وتضيق بك وتظلم في عينك وقد قاربت من الإياس، فتهرع إلى قصة يونس تتربص بخيوط النور المتسللة من بين الظلمات الثلاث، وتتوالى عليك الملمات والمصائب، فتسارع إلى قصة يوسف تصعد مع خطاطتها وتنزل بين فرج تتبعه شدة، وبين شدة ليس لها من عاقب إلا الفرج.. تنظر إلى الدنيا ومتاعها الذي لا يعدو أن يكون حطامًا تذروه الرياح فتتخيل الصورة فتسارع إلى الرضوان وتختار الباقية على الآفلة الفانية.. وتنظر إلى مآلات صراع الخير والشر والكفر والإيمان والاستجابة والعصيان، فتدرب النفس على موازين الحق، وتمرِّسها على العمل وعلى حسن الاختيار..

هل جربت أن يؤذَّن في روحك أن أقبلي، فهذا كتاب الله، فماذا أنت صانعة فيه ومعه؟

فقم، أيها الشارد السادر في الغفلة، وامسح عنك الوسن، واغتسل بدمعك وبعطر كلام الله، واستجب لداعي الشرف وباعث إقامة حكم الآي وأمره قبل إقامة حرفه..

استفتح من الله واسأله المدد.. رتب حقائبك، واحجز مكانًا لرحلة آمنة بفضل الكريم المنان إلى تدبر كلامه..

(١٢)

ما يولد كبيراً قد كفاك العناء..

ما يولد كبيراً لا نحتاج إلى كثير جهد لإنمائه فقد كفاك بولادته كبيراً ذلك،

إنما نحتاج إلى جلد وقوة ومثابرة لكي نحافظ على حجمه..

مشاريع رمضان تولد كبيرة، فلنحرص على أن تبقى كذلك, وألا تضيع منا في زحمة الساعات وتوالي الأيام وتقادمها..

ولنسأل الله أن يتسلمها منا متقبلة..

(١٣)

إن لم نستطع بناء محيطنا اللائق بنا، فلا أقل من التأقلم معه..

وإلا فحياة خنوع وذل ونكد وضيق وغم وهم..

رمضان يعلمنا أننا إن كنا قادرين- خلاله- على تكوين بيئتنا وبناء محيطنا النوراني بمنة الله وفضله وجوده، فإننا- من باب أولى، وعلى الأقل- قادرون على التأقلم مع أجوائه الإيمانية.

فإن لم يكن لا بناء وتكوين، ولا تأقلم وتعود، فلنتهم قلوبنا وضعف همتنا وقبلها نياتنا.. فالزمان زمن نفحة ومنة وكرم وعفو وجود إلهي..

والمحروم من حرم نفسه العفو والجنان والزاد والتجارة الرابحة وقد سالت بها السماء واحتملتها السيول زبدًا رابيًا متبرجًا للطالبين، لا يحتاج إلى طول سبر ولا إلى كثرة غوص: منةً من المنان الجواد الذي أخذ على نفسه عهد عتق رقاب عباده كل ليلة، القائل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم:

«إذا كانت أول ليلة من رمضان, صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم

يغلق منها باب ونادى مناد يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك في كل ليلة» صححه الألباني

اللهم لا تحرمنا بذنوبنا الوقوف على باب عفوك، واجعلنا يا كريم يا رحيم من عتقائك في هذا الشهر الكريم.

(١٤)

الميزان الحق ما تعادلت كفتاه..

رمضان فرصتنا حتى تتعادل كفتا الميزان..

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (المؤمنون:٥٧-٦١).

عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: « لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

ريح مرسلة.. سباقون بالخير.. أولئك الذين يسارعون بالخيرات..

ولا ضامن لهم من الديان الحسيب سريع الحساب إلا هو سبحانه..

صيام وقيام وبر وإحسان وصدقات وقربات.. طاعة وإخلاص، وجد واجتهاد.. تلك كفة الميزان..

وكفتها الأخرى: شفقة ووجل وخشية من عدم القبول ومن توقع المكروه وسوء العاقبة وما يطلع عليه عند لقاء الديان..

تلك الموازين الحق..

والمغرور من غره عمله..

فيا ليت شعري، أخوف من سيئات قد سودت الصحائف، هي تحت مشيئة التوبة والأوبة والإنابة؟ أم من حسنات كالجبال، رد وهباء وعهن منفوش؟

إلا أن تتغمدنا برحمتك وعفوك وبرك وإحسانك..

(١٥)

خبيئتك في رمضان

خبيئة.. أم دسيسة؟ فتش في خبايا بواطنك..

وبين الخبيئة والدسيسة[1] يرتقي رمضانك لأعالي الجنان، ويطرق بك باب الريان، أو يهوي بك على أم رأسك في سحق الطين والدون والهوان..

.. وتلك الفتيلة مهما كانت صغيرة، فظلام الليل وستر الخبيئة يجعلها تضيء ولو لم تمسسها نار..

استر عملك ولا تتركه يضيع منك برياء أو بسمعة.. لا تتحدث عنه، دعه يتحدث عنك

ولذكر لك عند الله في ملئه الأعلى أفضل..

---

(١) الدسيسة ما أخفى المرء في بواطنه من خداع ورياء ونفاق وغيرها، والتي تكون سببًا في هلاكه وميتة السوء وسوء الخاتمة نسأل الله العافية، والخبيئة ما يخفى من عمل صالح.. سر بين العبد وربه يرجو به وجهه ويدخره ليوم القيامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل». صحيح الجامع.

(١٦)

تجارة المستصلحين
لا للمداهنة.. نعم للمحاسبة

رمضان الشفافية مع النفس والاطلاع الدائم على القلب

(هي لك يا نفسي قبل غيري، فاللهم أعن وسدد واهد وتب علينا كي نتوب..).

جلسات صلح مستعجلة مع:

- نفسك الأمارة

- دمع عينك الجافل

- قلبك المترع بالسفاسف

- قرآنك القابع في زاوية خزانة

- وقتك المهدر بين المعصية وبين ما تظنه طاعة، وبين مباحات هي كل البضاعة..

هو نفس الذنب، ونفس الضعف، ونفس الهاوية..

وكلما رمتَ تجاوزه.. امتدت عيناك تناجيه،

وكلما قلتَ برئتَ منه.. زادك هونك غرقًا فيه،

وكل توبتك طائفة حوله.. ويخرج غرقك ما كنت تخفيه،

مرارته في حلقك تذبحك.. وضعفك أمامه في عينك يحلِّيه..

رمضان فرصتك لأن تكون أكثر قربًا من نفسك وأكثر قدرة على قراءتها

رمضان الصدق..

(اللهم ولايتك التي وعدت عبادك المؤمنين، ومغفرتك التي تمسح بها عنهم ذنوبهم والأدران، وسترك يا ستير، وعفوك يا عفو..

ورحمتك يا قوي بضعف عبدك الغارق في بشريته، المغرور بالعهد وطول الأمان..).

ومضة:

ما رأيت من إناء أكثر نضوحًا بما فيه من النفس:

إن خادعتها، خدعتك وجعلتك تصدق أنك خادعها

وإن داهنتها.. بجحتك فبجحت إليك وجعلتك تظن أنك من خيرة الناس وإنك لمن أسوئهم إن لم تكن أسوأهم..

وإن زكيتها.. جعلت جزاءك من جنس تعاملك معها، فزكتك وبشرتك- على ما أنت عليه يا مسكين من غفلة وتيهان- بالجنان ورب غير غضبان..

وإن منيتها.. منتك حتى إنك لترى مقعدك من الفردوس الأعلى مع الأنبياء والشهداء والصديقين فليس يمنعك من دخولها واللحوق بهم إلا أن تموت

وإن صدَقتها..صدقتك وأدت إليك حق صحبتها نهيًا وزجرًا وتقريعًا

وإن حاسبتها.. أذعنت إليك وأناخت مطاياها لك وجعلتك أكثر عمقًا وشفافية وجادت عليك بالنصح والإرشاد حتى إن مثالبك ومعائبك لتمنع عينك الرقوء والرقاد، وإن محاسنك وما أنت فيه من عافية لتحسبها استدراجًا وفتنة فتعجل إلى ربك ليرضيك ويرضى عنك..

فلتكن دائم التفقد لإنائك ما دام لا ينضح إلا بما فيه..

(١٧)

لا تضع حسناتك في صرة مخرومة

لا تكن كريطا الشمطاء تنقض الغزل بعد نسجه أنكاثًا.

ولا تجعل حسناتك في جراب مخروق.

رمضان شهر الجود والكرم والصدقات..

بالمال، والكلمة الطيبة، وإماطة الأذى عن النفوس قبل الطرقات..

فاحرص على ألا يكون نصيبك من الصدقة حسناتك الملمومة في جراب مخروق.. بالرياء والرفث والصخب والغيبة، فرُبّ صائم ليس له من صيامه سوى الجوع والعطش..

(١٨)

رمضان فرصتك لتعلّم الخضوع و المحبة..

شيطانك مصفد، ونفسك يخفف وطأتها الصيام.. وكل حواسك وجوارحك مستكينة تنتظر فرحة الإفطار.. وقلبك قد أرهقه الجوع.. وصار يعلم معاني الحاجة والافتقار..

استغل ضعفه، وعوده على الخضوع والاستكانة وحب كل من حوله.. سيتعلم حينها أبجديات المحبة، وستسبح روحك في ملكوت العزيز، وسترقى في الافتقار لتصل إلى محبة خالقها وبارئها الودود سبحانه..

ومضة:

كن دائم القرب من قلبك.

مناجاة قلب:

إلى هذا الذي قبع بين أضلعي...

إلى هذا الذي جعله الله بين أصبعيه يقلبه كيف يشاء..

إليك يا من اجتمع فيه الإيمان والشهوة (فأنت لما غلب عليك منهما).

إليك يا من إن صلح صلحتُ معه, وإن فسد أفسدني وجرعني نخب المرارة والخسران.

أأكتب إليك بدمائك، أم بدموعي الحرى التي قَلَتْ أجفاني؟

وماذا عساني أقول لك وأنت تعلم عني ما لا أعلمه؟

أأبوح لك بأنني طالما ظننت أنني سجنك فإذا بك أنت سجني وأنت الجلاد؟

أم أهمس لك_ والألم يعتصرني _ أنني أمنت لك فإذا بك تتقلب علي وتجمح.. فلا بزمامك أمسكت ولا أحوالك فهمت؟

أم أبثك همومًا أثقلتني، وذنوبًا كبلتني؟ ذنوب كنتَ فيها أنت البطل.. فصُلْتَ وجُلْتَ وزينت وأمرت.. وكنتُ في النهاية أنا الضحية وأنا الشاهد والجاني.

لا بل سأدع هذا وذاك لأجلس إليك.. لأعترف بين يديك.. فما كنت لأصير إلى ما صرت إليه لولا تفريطي فيك وانشغالي عنك.. فاليوم قبل أي وقت مضى، أمد يدي إليك وأعدك.. بيقين من هجر ركوب بحر التمني، وتعلق بمن نجا كل من جاءه بقلب سليم أن أبحث لك_ بعونه سبحانه_ عن الدواء بعدما علمت الداء.

أسأل الله الذي يحول بين المرء وقلبه أن يجمعني بك على حبه وإخلاصه وأن يثبتك على دينه, وأن يجعلني ممن جاء إليه بقلب سليم..

(١٩)

رمضان مدرسة الأخلاق

قد تُعذر،

إن كان جيبك يئن مما يمكنك التصدق به أو الإهداء، فليس لك في قلة ذات اليد حيلة..

فهل تُعذر،

عن ابتسامة، ووجه طلق، وكلام طيب؟

فإن لم يكن لا هذا ولا ذاك، فلا أقل من صمت ترحم به غيرك من شظايا لسانك السليط..

ومضة:

- أخلاقك في رمضان امتداد لما كنت عليه قُبيله..

فيا من شغل في شعبان بالحديث عن فلان وعن علان،

قل لي بالله عليك، أبهذا ستستقبل رمضان؟

(عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)

(٢٠)

احذر العطالة !

ليست العطالة دائمًا انقطاعًا عن العمل بالكلية، ولكنها أيضًا الرضا بالمتواضع في الأداء والاكتفاء بالمتاح..

ونحن نقلب صفحات هذا الشهر الكريم، شهر العبادة والتنويع والجد والاجتهاد، يحضرني مثل مفاده:» إذا كنت تستطيع أن تكون بالمركز الأول، فلا أحد سيعذرك إن اكتفيت بالمركز الثاني»

قد قفز إلى ذهني وأنا أرى ثلث الشهر قد انقضى ولم يبق منه سوى أيام قلائل نخشى أن نخرج منها كما دخلنا وأن نضيع في الزهد في «الأول» و « الأحسن» و «الأفضل» و «الأوجب»..

رمضان فرصتنا للإتقان والرقي بأعمالنا من العادي، إلى إحراز قصب السبق في الاجتهاد، ومن القناعة بالمتاح، إلى المبادرة وعدم الرضا من الأعمال إلا بأفضلها ومن الجنان إلا بالفردوس الأعلى بحول ومنة الكريم المنان. وأن ننتقل من صفات العاطلين المقتصدين إلى صفات السباقين، فـ (ليس العاطل من لا يؤدي عملًا فقط، العاطل من يؤدي عملًا في وسعه أن يؤدي أفضل منه)

(٢١)

تجارة المحتسبين

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- في رسالته التبوكية:

«فإن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعةً وقربةً حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة والهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وهو: الاحتساب».(الرسالة التبوكية) ص٤٥

رمضان تجارة المحتسبين..

في صومك احتساب، وفي صلاتك وقيامك، وعند سحورك وعند الإفطار..

وعند ذكرك الذي يمنع عنك مباح الكلام قبل فاحشه..

وعند إيقاظ الزوجة والأبناء للسحور وللصلاة..

وعند زجر يديك عن تقليب القنوات.. وعينيك عن إطلاقها في المحرمات..

وغيرها وغيرها..

احتسبها لله الشكور.. الذي يعطي على القليل الكثير..

تجارة- والله- لن تبور..

وأنت أيتها المرأة، الاحتساب: تجارتك الرابحة،

رمضان فرصتك للتمرن على فن البدار إلى طلب الأجر على ما كبر وما دق من الأعمال بنفس مطمئنة راضية غير متبرمة ولا متسخطة:

في المطبخ وأنت تهيئين لزوجك وأبنائك الطعام.. في صبرك على إيقاظهم للسحور.. في حثهم على الصلاة وقراءة القرآن.. في فك نزاعات الأبناء وتذكيرهم بحديث: (فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفثْ ولا يصخبْ، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتَلَه، فليقُلْ: إنِّي امرُؤ صائم) مُتفَق عليه. وفي كل ما تقومين به من أعمال..

كوني لهم عونًا على الطاعة واحتسبي الأجر من البر الشكور الذي يعطي على القليل الكثير..

عمرة امرأة حبيب العجمي: كانت توقظه بالليل، وتقول: قم يا رجل، فقد ذهب الليل، وبين يديك طريق بعيد، وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقينا. «(صفة الصفوة:٤/٤٥)

(٢٢)

تجارة السباقين

قصب السبق

لربما كنت من ظالمي أنفسهم: تفريط في الطاعة وتوريط للنفس في المعصية (ومن منا غير ذلك)

لربما قد اعتدت على تجارة المقتصدين: مجاهدة نفس على تأدية الواجبات وترك المحرمات، من غير إتيان بمنتهى القربات الرافعة للدرجات..

في رمضان جرب تجارة السباقين بالخيرات.. الطموحين المحرزين للسبق في الطاعات وإسراع الخطى للمغفرة والفردوس الأعلى..

وذلك هو الفضل الكبير..

ومضة:

«سبقك بها عكاشة» [١]

بين طلب الأول وطلب الثاني بضع دقائق ولربما أقل، لكن فاز بها الأسرع والسباق لطلب الخير..

في رمضان، كن أنت عكاشة..

---

(١) مقتطف من الحديث المشهور:

خرَج علينا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا فقال: (عُرِضَتْ عليَّ الأمَمُ، فجعَل يمرُّ النبيُّ معَه الرجلُ، والنبيُّ معَه الرجلانِ، والنبيُّ معَه الرَّهطُ، والنبيُّ ليس معَه أحدٌ، ورأيتُ سَوادًا كثيرًا سدَّ الأُفُقَ، فرجَوتُ أن يكونَ أمتي، فقيل: هذا موسى وقومُه، ثم قيل لي: انظُرْ، فرأيتُ سَوادًا كثيرًا سدَّ الأُفُقَ، فقيل لي: انظُرْ هكذا وهكذا، فرأيتُ سَوادًا كثيرًا سدَّ الأُفُقَ، فقيل: هؤلاءِ أمتُك، ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفًا يدخُلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ). فتفرَّقَ الناسُ ولم يبَيِّنْ لهم، فتذاكَرَ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: أما نحنُ فوُلِدْنا في الشِّركِ، ولكنا آمنا باللهِ ورسولِه، ولكن هؤلاءِ هم أبناؤُنا، فبلَغَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: (همُ الذينَ لا يتطيَّرونَ، ولا يسترقونَ، ولا يكتَوُونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ). فقام عُكَّاشَةُ بنُ محصَنٍ فقال: أمنْهم أنا يا رسولَ اللهِ ؟ قال: (نعَمْ). فقام آخَرُ فقال: أمنْهم أنا ؟ فقال: (سَبَقَك بها عُكَّاشَةُ) .

الراوي: عبد الله بن عباس المحدث:البخاري- المصدر: صحيح البخاري- الصفحة أو الرقم: ٢٥٧٥

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

(٢٣)

رمضان الصبر والمصابرة

(يـا أيها الـذيـن آمـنـوا اصـبروا وصـابـروا ورابـطـوا واتـقـوا الله لعلكم تفلحون).

الصبر والمـصـابـرة والمـرابـطـة.. وتـقـوى الـلـه.. متلازمة لا تنفع واحـدة دون الأخـرى.. حبس النفس عن المعصية وإدامـة مخالفتها في ذلـك; فهي تـدعـو وهـو يـنـزع، والـعـزم والـعـقـد عـلى ذلـك.. والمصابرة مفاعلة: فلأكن صابرًا في وجـه الصابر مثلي. وكلما كان صبر من أمامي شـديـدًا، خشيت التزعزع والتزلزل، واحتجت إلى مقاومة أشد.. ونتيجة الصبر للأطول الصابرين صبرًا..

ومـن الـتـقـوى تـرك الـهـمـز والـلـمـز والـفـحـش.. والـبـراءة مـن حولنا إلى حـول الـلـه وقـوتـه.. ومـن عـدتي وعـددي وخـبرتي، إلى كلأ وكنف ربنا المنان..

المعز المذل الرافع الخافض، الولي النصير..

من التزموا حقًّا بذلك، فأولئك هم المفلحون..

(٢٤)

رمضان «مشروع متطور طويل الأمد»

يُبذَر غرسه في رمضان ولا تقطف الثمار إلا على أبواب الريان.

ومن بين ما يجب أن يركز عليه هذا المشروع:

- الخروج بالعبادة من العادة والروتين و«هـذا ما وجدنا عليه آباءنا» إلى «إنَّ الإيمـانَ لَيَخْلَقُ في جَـوفِ أحدِكُمْ كَما يَخلَقُ الثّوبُ، فاسْألُوا اللهَ تعالَى أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكُمْ»صححه الألباني.

- نفخ روح وأنفاس جديدة في العبادة،

- تطوير العلاقة مع الله وإعـادة صياغتها بالاهتمام بالجانب الـروحـي والأعـمـال القلبية، وتطهير النفس مـن أمـراض القلوب الـتـي تجهض تـطـور المـشروع: (الـحـسـد، الـكـبر, الـريـاء، الـغـرور، العجب...) وتأسيس علاقة جديدة مع كتاب الله فهمًا واستيعابًا وتـدبـرًا، والتعرف على أسـماء الله وصفاته وأفعاله بمطالعة بعض الكتب المفسرة لأسماء الله الحسنى.

- الـحـرص في ذلـك عـلى نـفـس واعـيـة شـفـافـة تـقـيّـم المـرحـلـة وتبحث عن الروح أينها خلال كل مراحل المشروع

- محاسبة النفس بشكل مستمر.

(٢٥)

احذر الفتور

فرح بقدوم الشهر الكريم، همة ونشاط وكد ومجاهدة ووعود بأن نري الله منا ما يحب، ثم يمر اليوم واليومان، فإذا بتلك الروح التي كانت بالأمس تتوقد همة وحيوية، أصبحت راكنة إلى الكسل والخمول والفتور والشعور بالضعف والثقل أثناء أداء الطاعات. وصار الانشغال بالسفاسف عن فعل الخيرات، والفوضى والهروب من العمل الجدي المنظم. وتلك النفس التي كانت معك بالأمس القريب شفافة وفية، قد أصبح ديدنها مخادعتك وإيهامك بأنك تعمل ولكنك في الحقيقة بطالًا فارغًا.. وإذا بالعزيمة تصبح تسويفًا وتأجيلًا وأماني خداعة.

هي جبلة في النفس البشرية الخنوع، الراكنة إلى الراحة والبطالة، لكن ليكن الحذر من تفلت كل زمامها منك، ولتكن فترتك إلى سنة جديدة وعلى تسديد ومقاربة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل عمل شرّة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت على غير ذلك فقد هلك. « صححه أحمد شاكر.

قال ابن القيم رحمه الله: «تخلل الفترات للسالكين أمر لا بد

منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم، رجي له أن يعود خيرًا مما كان».

فلتكن الفزعة إلى التنويع في العبادات فذلك يمنع الفتور ويجدد النشاط، ولنتذكر باستمرار عظم الهدف وقلة الزاد وطول الرحلة، فتعلو الهمة من جديد، وتنبعث الروح النشيطة والنفس التواقة للمعالي من جديد، ويتأجج الشوق إلى الجنة وإلى لقاء الجواد الكريم العفو الرحيم سبحانه.

(٢٦)

فإنها إذا فاتت؛ فلا وجه لاستدراكها.

منذ أيام فقط كنا نتحدث عن كيفية استقبال الشهر الفضيل، وعن خطوات عملية لتثبيت العرش قبل النقش، ولتخلية القلوب من الشوائب قبل تحليتها بما يحييها.

وذاك الشوق والحنين قد عانق فضاءات الرجاء وشساعة الأمل في موسم الخيرات ونفحة من النفحات الإلهية التي جاد بها على عباده .

ها قد مرت أيام وأيام على دخول الشهر الكريم، وهاهي ذي قلوب تتوجع لقرب رحيل بات وشيكًا، إنما ينتظر أن تلفه الأيام وتطويه الليالي ولا يبقى من الحدث سوى الذكرى، ومن الورد سوى العبق، ومن الشجرة السامقة سوى أوراقها المتساقطة قهرًا بتعاقب الليل والنهار.

ترانا أحسنَّا الصيام والقيام وعبودية مولانا؟ أم أنها كانت أماني وأحلامًا وتسويفًا وإرجاء؟

ترى ما حال قلوبنا مع القرآن؟ وما حال أخلاقنا التي وعدنا قبيل رمضان بإصلاحها وتزكيتها, وأن نُري الله منها ما يحب؟

هل كنا ممن كان كل همهم أن يسددوا ويقاربوا وأن يشكروا الله على التوفيق وأن يعتذروا منه سبحانه عن التقصير ؟ أم كنا ممن غرهم عملهم وانشغلوا بالتباهي بكثرة الختمات وبعدد الركعات عن مجاهدة سرائرهم وتجريد نياتهم لله؟

هل كنا ممن علم بقصر الموسم وسرعة انقضاء الفرصة وعدم تعويضها، فشَحَّ بوقته وكل لحظة من يومه فلم يضيعها في المباحات فضلًا عن صرفها في المحرمات؟

إن كان كل حظنا مما مضى تقصيرًا وتسويفًا وانشغالًا بالسفاسف، فالبدار البدار للإحسان فيما بقي.

«فالموفَّق من تلمَّح قِصَر الموسم المعمول فيه، وامتداد زمان الجزاء الذي لا آخر له، فانتهبَ حتى اللحظة، وزاحم كل فضيلة، فإنها إذا فاتت؛ فلا وجه لاستدراكها». اهـ (صيد الخاطر ابن الجوزي- رحمه الله-)

(٢٧)

مهما يكن، حقق لله عبوديتك،

احذر أن يضيع منك رمضان في خضم الأحداث:

عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الخندق: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس».

وفي لفظ لمسلم: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»، ثم صلاها بين المغرب والعشاء.

لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم حينها صلاة الخوف لأنها لم تكن قد شرعت بعد، قال الإمام النووي: «قال العلماء: يُحتمل أنه أخّرها نسيانًا لا عمدًا، وكان السبب في النسيان الاشتغال بأمر العدو، ويُحتمل أنه أخّرها عمدًا للاشتغال بالعدو، وكان هذا عذرًا في تأخير الصلاة قبل نزول صلاة الخوف، وأما اليوم فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال، بل يُصلي صلاة الخوف على حسب الحال.»اهـ.

في رمضان، هناك صوم، ولم يشرع بديلاً له «صوم خوف»، فاحذر أن يشغلوك عنه فيضيع منك بالفحش واللعن والسب

والقذف ومتابعة المحرمات.. وهناك ذكر، ولم يشرع بديلاً له «ذكر خوف»، فاحذر أن يضيع منك لسانك في سرد الأفلام وتحليل الوقائع والأحداث، وفي الغيبة والنميمة والفحش، ولا تحركه في ذكر الله..

وهناك جود وكرم، فاحذر أن يكون نصيبك منه الصدقة بحسناتك وفضائل أعمالك على من تغتابهم وتشتمهم وتقذفهم. وهناك قيام، فاحذر أن يكون ليلك لمتابعة الأخبار والتحليلات السياسية فضلًا عن المسلسلات ومباريات الكرة، وتنسى نزول الإله الودود القائل سبحانه: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

وفي الأخير، حذار أن ينتهي الشهر فتقول: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن رمضان».. فلربما يكون آخر رمضان لك، ولربما لقيت الله قبل أن تستعيد ما سُرق هذا العام منك..

(٢٨)

اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عنا..

(دعاء العشر الأواخر)

جاء في لسان العرب:

«(العفوُّ) وهو فعول من العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس وهو من أبنية المبالغة، وكل من استحق العقوبة فتركتها فقد عفوت عنه... مأخوذ من قولهم عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها»

والفرق بين العفو والغفور:

قال الغزالي رحمه الله: «العفو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه وإن الغفران ينبني عن الستر، والعفو ينبني عن المحو، والمحو أبلغ من الستر»..

في رمضان، إذ تسأل الله عفوه وترجو ستره،

وطِّن نفسك على العفو عن كل من أساء إليك، لعلك تجد من يعفو عنك أنت أيضًا..

ولعل الله محب العفو أن يكافئك بمغفرته وعفوه..

ومضة:

والنفس متقلبة بين النعمة، وبين غرقها في لجج العيوب والتقصير..

فلا النعمة قد شكرناها حق شكرها، فالذنب ما ترك للسان حروف شكر، ولا للجوارح مطالعة المنة وشهود حلم الحليم..

ولا الذنب قد اغتسلنا منه بماء التوبة والحوبة والانكسار بين يدي الستير الغفور..

قد أفسد علينا الذنب عبوديتنا، وكبلتنا الغفلة وطول الأمل والتسويف..

وإنما المؤمل فيه: عفو العفو سبحانه محب العفو، غافر الذنب الحليم المنان..

فأكثر من سؤال الله العفو وأن يمحو عنك السيئات.

(٢٩)

أخلص وأحسن فيما بقي يغفر الله ما مضى..

والتوبة تجب ما قبلها..

وأتبع السيئة الحسنة تمحها..

قد كان التقصير- ولا محالة- فيما مضى من أيام، لكن ترانا سنقف على الأطلال نبكيها، وعلى الميت نسقي قبره حسرة ودموعًا؟

ترانا سنقف عند بداية الطريق ونعتذر لأنفسنا ونعذرها على الضعف وقلة الحيلة وتلبُّسها بالتفريط؟

ترانا سنقف عند محاسبة النفس على التقصير وعلى إخلاف الوعد، ونشتغل بتقريعها وفقط بتقريعها، فنجمع على التسويف؛ بطالة واستغراقًا في اللحظة الحاضرة؟ أم أننا سنحاول الاستفادة من «اللحظة» الماضية « واستغلال «اللحظة الحاضرة» من أجل نظرة متزنة للتخطيط للمستقبل؟

وسنعد ربنا- على ما نحن عليه من تسويف وغفلة- بالعمل الدءوب وعدم تفويت فرصة العتق والنجاة؟ فنصدق الدعاء له سبحانه أن يأخذ بأيدينا وألا يؤاخذنا بضعفنا وتقصيرنا.. ونستمد

ممن عباده سوانا كثير ولا رب لنا إلا هو سبحانه، توفيقه وهدايته وإعانته على النفس المتمنعة الجموح؟

لم يبق الكثير، إنما هي أيام وليال لنعانق ليلة العتق والعفو، فاللهم لا تحرمنا عفوك وفضلك وشهود منتك..

(٣٠)

قبل أن ينفرط العقد.. وحتى لا تتكرر المأساة.

العشر الأواخر المباركات فرصتنا للنجاة

على مشارف بر الأمان، قد تخور قوى الغريق تعبًا، وقد تخور غرورًا برؤية الشاطئ بالقرب، وقد يكون الهلاك تفريطًا في توخي الحذر، فيغرق وهو الذي كان يؤمل في ميلاد جديد بعد النجاة من بحر نفسه وهواه وإغراقه في بشريته..

لم يتعلم من أولئك الذين جاءته أخبارهم، أنهم كانوا على وشك الوصول، لولا أنهم فرطوا وتقاعسوا وخارت عزائمهم في وقت كانوا فيه أحوج ما يكونون إلى الصبر والعزيمة والمواصلة..

وكانت النتيجة: زفرات وآهات وحسرات على ما فرطوا في جنب الله، وعلى ما ضيعوا من أطواق النجاة..

وقبل أن ينفرط العقد، وحتى لا تتكرر المأساة، لنكن ممن يستفيدون من أخطائهم وأخطاء غيرهم الماضية من أجل الإصلاح، ولنستحضر حالنا في أعوام سابقة، وقد انقضت سويعات العتق والعفو، ولم نستغل بجد طوق النجاة..

فكان كل الحظ في النهاية:

(زفرة مكلوم)، يقرع بها نفسه، ويقتلها لومًا وحسرة، لسان حاله ومقاله:

«لكم منيت نفسي بالسعي الدءوب وبالجد والاجتهاد.. وكم وعدتها بالإتقان وأن أُرِي الله منها ما يحب..

ويمر اليوم والآخر فلا أجد منها ذاك الحماس الذي كان،

وإذا تلك الأماني أبت إلا أن تبقى أماني..

منيتها بما يستقبل من أيام،

فإذا هي تنصرم كصويحباتها..

منيتها بالعشر الأواخر،

وها هي ذي هي الأخرى قد انفرطت لآلئها وصار وداع الشهر وشيكًا..

لكم وددت أن أستقبل العيد بنفس مطمئنة لما بذرت، واثقًا من الجائزة يوم الفرح الأكبر..

لكنه التقصير والتسويف والمماطلة..

حتى إذا ما شارف شهر الرحمة على الانصرام،

فإذا هي نفس الغصة ونفس الحسرة، كما كل سنة، على ما فرطت في جنب الله..»

ويبقى الرجاء في رب رحيم ودود شكور عفو غفور..

(٣١)

الضيف إذا أقبل فحقه أن تكرم وفادته، وإن أزمع الرحيل فأحسن له الوداع..

قد كان منك العزم على استقبال رمضان بمزيد طاعة وكثير احتساب وسباق للخير وللإحسان، فلا تجعل وداعه في الكسل والدعة، ولا تجعل آخر أيامه نهاية عهدك بالجد والاجتهاد، فرَبُّ رمضان الذي أعانك على ذكره وشكره وعبادته، مجيب قريب يجيب دعوة من دعاه آناء الليل وأطراف النهار، فتملق له سبحانه أن يجعل على الطاعة والبر والإحسان وداعه، وأن يبقيك على ما أنت عليه إلى حين استقباله فيما يلي من أعوام.

قد كنت تجتهد في قراءة القرآن وختمه وتدبره، فابق على ذلك ما استطعت، وقد كنت تحافظ على الصلاة في وقتها وعلى القيام، فاجعل لباقي ليالي السنة من ذلك أيضًا نصيبًا. وقد كان منك الصوم شهرًا كاملًا، فاحرص على صيام الاثنين والخميس والأيام البيض وتحرَّ نفحات ذي الحجة وعاشوراء وغيرها.. وقد كان منك كثير ذكر وتوبة، فاجعل بقية أيام السنة عامرة بالذكر والاستغفار، ولا تنس أن تتفقد توبتك وألا تجعلها في جراب مخروم.. وقد جاهدت نفسك وراقبت قلبك وحاولت صيانة سمعك وبصرك عن المسلسلات والأغاني والملهيات، حاول الاستمرار على ذلك واسأل الله العون والثبات..

فرَبُّ رمضان هو رب سائر الأيام..

(٣٢)

والضيف إن رحل، فما أدراك إن كنت ستلقاه بعد الرحيل!

ها أنت يا رمضان قد حزمت حقائبك وشرعت مراكبك وعزمت الرحيل، وها نحن بقينا مصلوبين على مرافئ الانتظار نودعك ونمني النفس بلقاء قريب.. ونحتار أنبكيك أم نبكي أيام عمرنا المنصرمة إلى غير لقاء في الدنيا..

لن نبكيك يا رمضان، فأنت إذا ما رحلت اليوم فما لأفولك إلا إشراقة زاهية بُعيد شهور تمر كما الساعات، تحث بها خطى الإياب لتنير دروب الغافلين وتأخذ بيد التائهين.. تُستقبل استقبال الملوك، وتتلقاك القلوب الظمآى لأنوارك ومعينك تلقي العظماء الشامخين..

إنما سنبكي تقصيرنا وسويعات عمرنا الآفلة التي إذا ما رحلت فما من لقاء بها إلا والكتاب باليمين برحمة من جاد وعفا وهو أهل للرحمة والكرم على ما نحن عليه من غفلة وتقصير، أو بالشمال ومن عاقب وأخذ بالذنب، فبعدله وقد سبق منه لنا الإنذار والتحذير..

سنبكي أعمالنا التي لمّا نعلم أرفعت وتقبلها ربها بقبول حسن،

وازددنـا معها قربًا منه سبحانه؟ أم هوت بنا في العذاب والسخط والغضب والعياذ بالله؟

«يـا لـيـت شـعـري! مـن هــذا المـقـبـول مـنًـا فـنـهـنـئـه، ومــن هـذا المـحـروم فـنـعـزيـه، أيـهـا المـقـبـول هـنـيـئًـا لـك، أيـهـا المــردود جـبر الله مصيبتك».

يقول الشاعر: صالح بن علي العمري:

ومضى الحبيبُ فهل لنا من ملتقى	يُسلينِ أم تجني المنون غراسا
وآها لقلبي في غروبك بعد أنْ	أِلـفَ الطريقَ.. وعـاشرَ الأكياسا
أسـتـودعُ الله الكريمَ مآثرًا	تعظُ القلوبَ وتطرد الوسواسا
ولسوف تبقى ذكرياتُك حيّة	الواعظاتُ .. وإنْ بدينَ خراسا

الفهرس

الموضوع	الصفحة
سلعة الله غالية، وإليها قد شدت الرحال	٨
في رمـضـان.. كـل الــزاد رجـاء وطـمـع منك في الباع والذراع والهرولة	٩
رمضان التقلب في شعب الإيمـان قلبًا وقالبًا، روحًـا وجسدًا	١١
وبين العدل والفضل والحكمة تدور أفعاله وتشريعاته سبحانه	١٢
في رمضان، لتكن تجارتك مع ذنبك..	١٣
في استقبال رمضان.. التوبة	١٦
التوبة وسيلة والإنابة غاية	١٩
في رمضان الزم التذكر واليقظة	٢٢
ليلك في رمضان..	٢٣
رمضان المبادرة.. الدعاء الدعاء..	٢٦
الجهد المشتت لا يصنع تقدمًا	٢٨
ما يولد كبيرًا قد كفاك العناء..	٣٢
إن لم نستطع بناء محيطنا اللائق بنا، فلا أقل من التأقلم معه	٣٣
الميزان الحق ما تعادلت كفتاه..	٣٥
خبيئتك في رمضان	٣٧
تجارة المستصلحين.. لا للمداهنة..	
نعم للمحاسبة	٣٨
لا تضع حسناتك في صرة مخرومة	٤١

رمضان فرصتك لتعلّم الخضوع والمحبة.. ٤٢
رمضان مدرسة الأخلاق ٤٥
احذر العطالة! ٤٧
تجارة المحتسبين ٤٨
تجارة السباقين ٥٠
رمضان الصبر والمصابرة ٥٢
رمضان»مشروع متطور طويل الأمد« ٥٣
احذر الفتور! ٥٤
فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها ٥٦
مهما يكن، حقق لله عبوديتك! ٥٨
اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا.. ٦٠
أخلص وأحسن فيما بقي يغفر الله ما مضى.. ٦٢
قبل أن ينفرط العقد.. وحتى لا تتكرر المأساة ٦٤
الضيف إذا أقبل فحقه أن تكرم وفادته، وإن أزمع الرحيل فأحسن له الوداع.. ٦٦
والضيف إن رحل، فما أدراك إن كنت ستلقاه بعد الرحيل! ٦٧